بث روح الأمل

د. سعيد محمد أحمد قابل

مدرس الدعوة والأديان

بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة .

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله، أمره بين الكاف والنون، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فتح أمام الإنسانية آفاقاً رحبة ، وأزاح عنها ركام اليأس ، وأخرجهم من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، اللهم صل عليه وعلى آله وأصحابه الكرام البررة ، الذين كان جدهم على البشرية سعيداً ، وطالعهم على الإنسانية ميموناً ، وصحبتهم مباركة .

وبعد .

فإن الإنسان ابن أغيار ، وهو يعيش بين مد وجزر ، ونشاط وفتور ، وآمال وآلام ، وحزن وحبور وفرح وترح .

وتختلف حالات الأفراد نظراً لاختلاف طبائعهم ، فهنالك من يواجه الدنيا بوجه منبسط دائماً لا تفارقه الابتسامة ، وإن كانت عنده المشاكل السرمدية تنوخ ببابه لا تفارقه .

وهناك مَنْ تهتز أوتار نفسه حزناً بمجرد أن ريح مشكلة توشك أن تحوك طرف ثيابه ، فيسلم نفسه لها ، ويعيش في دوامتها ، فهو في أسرها رهين ، وقد تمر عليه مرور الكرام دون أن تعيره اهتماماً ، لكن كأهل الكهف [1] يظن أن ظلها واقع به فيغرق في بحر لجي من أمواج الأوهام تتقاذفه بلا غاية .

---

(١) حينما انزاح عنهم كابوس دقلديانوس ، وانفرجت ظلماته ، وهم في كهفهم لا يدرون ، فخرج رسولهم تكتنفه مشاعر الخوف ﴿ وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً ﴾ كذلك يكون أسير الأوهام .

ولقد جاء الإسلام بنظامه الشامل ليعلن للإنسانية أن اليأس قرين الكفر ، وان سعة الأمل ثمرة من ثمار الإيمان العميق ، وأن الرسول ﷺ ربى المسلم على أن يستوعب كل معضلة ، وأن يتعالى عليها ، ولم لا وهو الخليفة المكرم ، ذو السر الإلهي العظيم وهي الروح ، ومن منطلق أنه خليفة فقد سلمه الله مفتاحاً يستطيع أن يحقق المعجزات به ، وهو الدعاء ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ غافر ٦٠ .

بهذا عاش السلف على وجه الأرض فعمروها بعد خراب ، ونوروها بعد ظلام ، قهروا فيها المستحيلات ، وحققوا فوق ربوعها المعجزات ، هل سمع التاريخ من قبل ومن بعد أن جيشاً بعدده وعدده انتقل إلى عدوه يمشي فوق سطح الماء لا يخاف دركاً ولا يخشى غرقاً ، لقد تحقق ذلك لسلفنا العظيم في مواطن كثيرة حينما انطلقوا فوق سطح الماء كانطلاقهم فوق ربوع الأرض ، مما أذهل عقول خصومهم ، وأثبت الرعب في قلوبهم فألقوا إليهم السلم .

فبالأمل العريض استحال ضعف السلف قوة وكثروا كثرة مباركة بعد أن كانوا قلة مستضعفة ، وبسطوا نور الإسلام على نصف الكرة الأرضية في خمسين سنة كما صرح " نابليون " .

ولما تشعبت بالأمة المسلمة السبل ، وصار كل حزب بما لديهم فرحون ، فقدوا آمالهم فعضلت آلامهم ، وتفرق شملهم ، وتصدعت ألفتهم وانشقت عصاهم ، وذلك برغم كثرة عددهم وأموالهم وعتادهم .

وهذا البحث ــ في تواضعه ــ إسهام منا في محاولة " بث روح الأمل في الأمة الإسلامية " أفراداً وجماعات ، هادفين من ورائه إلى تحقيق النفع ، آملين أن يحرك في الناس ساكناً ، ويثير فيهم مشاعر العزة والكرامة .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

الباحث .

المبحث الأول .

ويشتمل على النقاط التالية :-

١- التعريف . ٢- المراد به .

٣- أهمية الأمل في الحياة .

٤- علاقة الأمل بالإيمان واليأس بالكفر .

(١) تعريف الأمل .

** **الأمل لغة** : معناه الرجاء ، وأكثر استعماله فيما يستبعد حصوله ، جمع آمال . [٢] والترجي : ارتقاب شيء محبوب ممكن . [٣]

(٢) المراد ببث روح الأمل .

الأمل يُطلق ويُراد به :-

١- **ضد اليأس والقنوط** ، وهذا ما ركز عليه القرآن الكريم طويلاً ، وجاءت الآيات تترا تدعو إلى الأمل العريض ، من ذلك قوله جل شأنه : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . ﴾ الصف ٨-٩ .

٢- أمل الغافلين : الذين آثروا ما يفنى على ما يبقى ، فلم يعملوا ولم يصلحوا ، بل صار كل همهم الفساد والإفساد ، وهذا النوع حاربه الإسلام ، قال ﷺ ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . ﴾ الحجر ٣.

---

(٢) المعجم الوجيز ص٢٥ ، مختار الصحاح باب اللام فصل الألف ص٣٧٩ .

(٣) المعجم الوجيز ص٢٥٨ .

ولا شك أن النوع الأول مختلف عن النوع الثاني تماماً :

فالأول : دعوة إلى الاجتهاد والجهاد والعمل على الرقي والحرص على ما يبقى .

والثاني : دعوة إلى التثاقل إلى الأرض والدعة وعدم النظرة بمنظار الإيمان إلى الإصلاح ..

وعلى هذا فإن المراد ببث روح الأمل هو نفي اليأس نفياً قاطعاً ، والتعالي على العقبات من خلال النظر في عواقب الأمور ، واستشعار أن لله حكمة فيما يقع على البسيطة ، وأن شيئاً من هذا لا يخرج من مدار حكمته ، وأن الله ﷻ لا يعجزه شيء ، أمره بين الكاف والنون ، وأن كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، وأن مع العسر يسراً ، وأن الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ، ما إن رجاه واستغاث به :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ غافر٦٠ .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ . ﴾ البقرة ١٨٦.

(٣) أهمية الأمل في الحياة .

الأمل هو ذلك النور الذي يضيء للمرء الحياة ، وهو الشعاع الذي يفتق رتق الظلمات ، وهو القلب المفعم الذي يحرك كل جوارح الإنساز ومشاعره ، وهو القوة الخفية التي تفجر في الإنسان طاقاته المدفونة . يقول فضيلة د٠ القرضاوي : " الأمل قوة دافعة تشرح الصدر للعمل . وتخلق دواعي الكفاح من أجل الواجب ، وتبعث النشاط في الروح والبدن، وتدفع الكسول إلى الجد ، والمجد إلى المداومة على جده .

والزيادة فيه ، وتدفع المخفق إلى تكرار المحاولة حتى ينجح ، وتحفز الناجح إلى مضاعفة الجهد ليزداد نجاحه . " (٤)

إن الأمل في الإنسان هو الحافز الذي لا يخبو أواره ولا يفتر عزمه ، فلولاه لما عمرت الحياة ، إذ أن الأمل يحمل صاحبه على تخطي العقبات، وعلى تحمل الشدائد ، هو الذي يحمل صاحبه على اقتحام المخاوف، وركوب الأهوال ، فالذي يدفع المرأة على ألم الحمل وشدة الوضع إنما هو الأمل في أن يكون لها ولد ، تشبع به غريزة الأمومة ، فلولا أمل الأمهات والآباء لما تناسلت المخلوقات ، ولما عمرت الحياة .

فالأمل هو المحرك لاتصال السلسلة من لدن آدم عليه السلام حتى قيام الساعة .

ولو تدبر المرء في حركة الحياة فإنه سيدرك بجلاء أن للأمل دوراً كبيراً في جريانها على هذا النحو من الإعمار .

" فالذي يدفع الزارع إلى الكدح والعرق أمله في الحصاد ، والذي يغري التاجر بالأسفار والمخاطر أمله في الربح ، والذي يبعث الطالب إلى الجد والمثابرة أمله في النجاح ، والذي يحفز الجندي إلى الاستبسال أمله في النصر ، والذي يهون على الشعب المستعبَد تكاليف الجهاد أمله في التحرر ، والذي يحبب إلى المريض الدواء المر أمله في العافية ، والذي يدفع المؤمن أن يخالف هواه ويطيع ربه أمله في رضوانه وجنته . " (٥)

لقد كان الأمل هو الحافز العظيم لأصحاب النبي ﷺ في ثباتهم أمام أعاصير فتن أبي جهل وحزبه ، الأمل فيما عند الله من خير ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ البقرة ١٥٥ .

---

(٤) الإيمان والحياة ص١٥٥ .

(٥) المرجع السابق ص١٥٦ .

هو الدافع لهم لهجرهم أوطانهم وأموالهم في مكة إلى المدينة ، هو الدافع لهم لأن يسيحوا في الأرض دعاة وهداة إلى الله ﷻ ، ولولا الأمل في نيل ما عند الله من ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ما تحركوا ، ولما ملئت الأرض عدلاً ونوراً بعد أن استحكمت ظلاماً وجوراً، ولما أزيح الطغاة والجبابرة من فوق عروشهم ، وزُلزلت الأرض من تحتهم بعد أن أذلوا الشعوب لأنفسهم وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، وأتى بأمة عدل هذاة مهديين كالغيث أينما وقعوا نفعوا ، حتى وصلت البشرية في عهدهم إلى حالة من الرخاء التام الشامل ليس وراءها مَطْلَع لناظر ، ولا زيادة لمستزيد ، وليس فوقها مرتقى لهمة ، ولا متجاوزاً لأمل ، وبلغت الإنسانية في الفضل غاية لا تُدرك ، لقد وعدهم الله بإحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة، فنفروا خفافاً وثقالاً آملين ما عند الله من خير الدارين.

سمع عمير بن الحمام ﷺ رسول الله ﷺ وهو يقول : " **والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة** "

فقال **عمير بن الحمام** ﷺ : **بخ بخ ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟! ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل.**

لقد وصلت البشرى إلى أعماق نفسه فاتضحت الرؤية أمامه كأنها رأي العين ، فعظم الأمل عنده لدرجة جعلته يستبطئ تلك الدقائق التي سيأكل فيها تمرات .

وثبات **عمير** ﷺ وإخوانه يوم بدر كان يقابله زعزعة في صفوف المشركين ، مما كان له أكبر الأثر في ارتفاع راية الإسلام وإخفاق راية الكفر .

الإسلام بما يحمله من معان الخير ، وإخفاق الكفر بما يحمله من شرور . فالأمل في الجنة كان عاملاً كبيراً في ترسيخ معاني الخير في الأرض ، وتأصيله في نفوس الناس .

ولما قال الرسول ﷺ أمام أصحابه يوماً : " **لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش .** " (٦)

ولما سمعه الصحابة حرصوا على فتح تلك المدينة (٧) آملين من وراء ذلك أن يفوزا بتلك البشرى العظيمة التي وعد بها رسول الله ﷺ ، وتكررت المحاولات من الخلفاء والأمراء (٨) ولكن الله ﷻ كان يدخر هذه البشارة للسلطان **محمد بن مراد الثاني (محمد الفاتح)** وجيشه .

فالأمل في الفوز بهذه البشارة هو الذي دفع المسلمين إلى تحمل المشاق والمصاعب هادفين إلى إحراز النصر .

---

(٦) أخرجه أحمد والحاكم عن بشر الغنوي ــ ضعيف الجامع الصغير للألباني رقم ٤٦٥٥ ، وانظر في فتح القسطنطينية من صحيح الجامع الصغير رقم ٤٠٩٦ و٧٤٣٣ .

(٧) تُعد مدينة القسطنطينية من أعظم المدن في التاريخ ، حتى قال نابليون بونابرت في شأنها : " فإن القسطنطينية وحدها مملكة ، ومَنْ ملك القسطنطينية أمكن أن يسود كل الدنيا " ، وقال مرة: " القسطنطينية مفتاح العالم " ــ أنظر كتاب : الدولة العثمانية والدعوة الإسلامية ــ د٠فرج محمد الوصيف ص٦٧ .

(٨) قصد الجيش الإسلامي القسطنطينية بقيادة بسر بن أرطأة عام ٦٥٣م فتلاقى مع الأسطول الرومي وهزمه ، ثم عاد مرة أخرى ، وتكرر هذا أيضاً عام ٦٦٤م ، وفي سنة ٥٥١هـ/٦٧٢م غزاها يزيد بن معاوية ، فحاصرها سبع سنوات ، وتوفي الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري أثناء الحصار ، ودُفن هنالك ، وفي عهد سليمان بن عبد الملك (٧١٦م) حاصرها أخوه مسلمة عاماً ، وفي زمن العباسيين غزا الجيش الإسلامي القسطنطينية أربع مرات في عهد المهدي والرشيد ــ الدولة العثمانية والدعوة الإسلامية ــ د٠فرج الوصيف ص٦٣-٦٤ بتصرف .

ولولا الأمل في النصر والتمكين لرأيت الحياة ــ الآن ــ قد استحكمت ظلاماً لا مكان فيه لشعاع من نور .

ولولا الأمل لرأيت الحياة قد استحالت فساداً لا مجال فيه لإصلاح ولا لمصلحين .

فكما تعمر الأرض بالحرث والنسل فإن عمرانها لن يستوي على سوقه إلا بنور الإسلام .

وقد رأينا كيف كان الأمل عاملاً رئيسياً في عمران الأرض بالحرث والنسل ، وكيف كان حافز المجاهدين والدعاة لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

(٤) علاقة الأمل بالإيمان ، واليأس بالكفر .

إن العلاقة بين الإيمان والأمل واليأس والكفر علاقة تلازم ، فالأمل لا ينقطع شعاعه في قلب المؤمن ونفسه أبداً .

كذلك سحابة اليأس الداكنة لا تنقشع عن وجه الكافر ، بل طبع الله على قلوبهم بها بكفرهم .

•• **فأما عن الإيمان والأمل :** فإن المؤمن أوسع الناس أملاً لاعتقاده بأن هناك قوة عليا تدبر أمر هذا الكون لا تخفى عليها خافية ، قوة الله ﷻ الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، فقوته غير محصورة ، ورحمته غير متناهية ، وكرمه غير محدود .

فإذا ما كانت نكبة المؤمن مالا فإنه يرى الأمل في رجاء الله الغني الحميد الذي بيده خزائن السماوات والأرض ، ويعلم أن تقوى الله هي سبب أكيد لجلب الخير : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب.. ﴾ الطلاق ٢-٣ .

وأنه إذا أخذ بأسباب الرزق [٩] متوكلاً على الله ، وألـح على الله في الدعاء ، إلا وسع الله عليه وجعل غناه بين عينيه .

وإذا كانت نكبة المؤمن مرضاً فإنه يعلم أن الله الشافي ، ويوقن بأنه فرجه بالشفاء قريب ، فيردد عن يقين ، ويوقن من غير تردد ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ الشعراء٨٠.

---

(٩) من أسباب الرزق : ١- العمل ، لقوله ﷻ ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ الملك١٥ . ٢- الهجرة ، لقوله ﷻ ﴿ ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيرة وسعة ﴾ النساء ١٠٠ ، أي مراغماً لأنوف البخلاء من الأغنياء حينما يشعرهم أن الرزق بيد الله يعطيه لمن أخذه بحقه وتوكل عليه لا بأيديهم ، وسعة في الرزق والمكان (تفسير القرطبي ٥/٢٢٣ بتصرف) . ٣- الاقتصاد لقوله ﷺ (ما عال من اقتصد) رواه أحمد . ٤- الإنفاق في سبيل الله لقوله ﷻ ﴿ ومن قُدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾ الطلاق ٧، أي ومن ضيق عليه رزقه فلينفق بقدر ما أعطاه الله فإن ذلك باب اليسر والغنى ﴿ سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ ٥- ترك المعصية لقوله ﷻ ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ النحل ١١٢، فبظلم منهم تحولت النعمة عنهم . ٦- الإكثار من الاستغفار والطاعة لقوله ﷻ : ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ هود٥٢ ، وقوله ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ هود٣ . وقوله ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً .﴾ نوح ١٠-١٢ .

ويتأسى بنبي الله أيوب عليه السلام الذي لم يقنط من رحمة ربه بالرغم من إحداق الخطوب به من كل جانب ونزلت به صروف الدهر ، ونكباته وعثراته ، فكان هدفاً للنوائب وغرضاً لها .

بالرغم من هذا كله كان أمله في الله قوياً ، فنادى ربه ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ .﴾الأنبياء ٨٣-٨٤.(١٠)

ذكرى للعابدين في كل زمن أن يدركوا أن باب الرجاء ينبغي أن لا نهمله، وأن نحسن دوام الطَّرْق عليه ليفتح لنا على مصراعيه كما فُتح لنبي الله أيوب عليه السلام .

وإذا يئس الناس من الأسباب المادية وقرر لهم الطبيب أن لا أمل في الولد لعقم نزل بأحد الزوجين ، فإنك تجد المؤمن يضع كل هذه الأسباب خلف ظهره ويُقبل على الله ﷻ إقبال الواثق مَنْ لو أقسم على الله لأبره ، ويردد نداء العبد الصالح ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾الأنبياء ٨٩.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ . فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ..﴾ آل عمران٣٨-٣٩.

وإذا أدرك المسلم أن ماضيه حافل بألوان المعصية والبعد عن الله ﷻ ، وقرأ صفحة تاريخه فلم يجد فيها ما يُشرف عند الله ، تحركت في نفسه

---

(١٠) ووردت روايات عديدة (أنظر قصص الأنبياء لابن كثير ص٢٣٨-٢٤٤ ط دار الحديث) وفي بعضها غرابة ، إلا أن المستفاد من المقطوع به من النصوص الصحيحة ومن اجتهادات العلماء وآثارهم أن أيوب أُبدل ثوب العافية في المال والأهل والبدن بعد أن نزل البلاء ــ الذي لا يقوى عليه إلا الأنبياء ــ بساحته نتيجة صبره الذي كان مضرب المثل .

مشاعر العود الحميد إلى الله ﷻ والذي دفعه إلى ذلك أمله في رحمة ربه الذي سبقت رحمته عذابه ، ومغفرته غضبه ، وعفوه انتقامه " إله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، إله يفرح بتوبة عبده أشد من فرحة الضال إذا وجد ، والغائب إذا وفد ، والظمآن إذا ورد . " (١١)

والذي دفع المؤمن إلى الرجوع إلى ربه وإنابته إليه هو علمه أن الله يحب التوابين ، ويفرح بهم ، ويبدل سيئاتهم حسنات ، ولو بلغت عنان السماء .

وهذا سر تحول العتاة إلى الهداة ، وصيرورتهم أعلاماً يُقتدى بهم ، قال ﷻ ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً . إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً . وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً . ﴾ الفرقان ٦٨-٧١.

لكنه لماذا يبدل سيئاتهم حسنات ؟ لأن المؤمن إذا استشعر بعد التوبة جرمه دفعه ذلك إلى الإكثار من الطاعات لعله يمحو آثار ذنوبه ، إن حرارة الذنب الذي مضى تلهب فيه مشاعر الإيمان فيندفع بقوة لإحياء شعائر الله ، فإذا كانت النار تزيل خبث الحديد فإن حرارة الندم في نفس المؤمن أشد ؛ لأنه الكيس ، هو الذي اتخذ من عامل خيبته في أمسه عامل نجاحه في غده ، حري أن يبدل له ربه سيئاته حسنات ، وأن ينشئه خلقاً آخر .

---

(١١) الإيمان والحياة ــ د٠ القرضاوي ص١٥٩ .

يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالي رحمه الله [١٢]: " يستطيع كل امرئ أن يجدد حياته ، وأن يعيد بناء نفسه على أشعة من الأمل والتوفيق واليقظة ، إن صوت الحق يهتف في كل مكان ليهتدي الحائرون ، ويتجدد البالون .. ولا تؤودنك كثرة الخطايا ، فلو كانت ركامًا أسود كزبد البحر ما بالى الله ﷻ بالتعفية عليها إن أنت اتجهت إليه قصداً ، وانطلقت إليه ركضاً ، إن الكنود القديم لا يجوز أن يكون عائقاً أمام أوبة صادقة :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّـهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ...﴾ الزمر ٥٣-٥٤ .

إن الإيمان في نفس الفرد يربط على قلبه ، فلا يستطيع اليأس أن يتسوب إليه ، ولا يستطيع الأمل أن يتسرب منه .

وهكذا يتولد الأمل دائما مع الإيمان وييأس اليأس من ذوي الإيمان ، وبهذا ندرك السر الذي من أجله ظل النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة يربي أصحابه فيها على عرى الإيمان ؛ لأنه سيغزو بهم العالم ، ويزيل جحافل الباطل وطواغيت الأرض ، وينشرون النور ، ويعيدون بناء الإنسانية من جديد ، إنها مهمة صعبة تحتاج لإنفاذها إلى أمل عريض في تحقيق هذا الهدف المنشود .

ولولا هذا الأمل العريض لما جلس هذا الأعيرابي على عرش كسرى وقيصر ، وتزوج من نسائه ، وتمتع بخيراته بالعدل والحكمة والرحمة ، وإنها المعجزة العظيمة للنبي ﷺ أن يُخرّج أمة بهذه الآمال وتلك الطموحات ، وكيف استطاع أن يؤسس في نفوسهم طيلة تلك المدة هذه الآمال وتلك الطموحات .

---

(١٢) جدد حياتك ص١٧ بتصرف .

**** تلازم اليأس [١٣] مع الكفر .**

وإذا كان المؤمن لا يعرف طريق اليأس لأن الله عصمه منه ، فإن في المقابل من ذلك ، ذلك الكافر الذي قطع حبال القرب من الله ، فصار قلبه بغير رباط ، فطبع الله عليه بما ران عليه من ذنوب وأوزار فاستقر اليأس في القلب ، واستقر فوق الركام فلم يجد الأمل إلى قلبه سبيلا ، قال ﷻ : ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .﴾ يوسف ٨٧ .

وهنا قصر اليأس من روح الله على الكافرين ، فسيدنا يعقوب عليه السلام نهض بنيه " وبشرهم وأمرهم ألا ييأسوا من روح الله ، أي لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدون فإنه لا يقطع الرجاء ، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرين . " [١٤]

فهم ــ أي الكافرون ــ لا يعرفون المعاني العظيمة التي يتمتع بمعرفتها المؤمنون ، " وليس بعجيب أن تجد هذا الصنف من الناس بوفرة وغزارة بين الجاحدين بالله أو ضعاف الإيمان به ؛ لأنهم عاشوا بأنفسهم فحسب ، وقطعوا الصلة بالكون ورب الكون ، فلا غرو أن تجد أن هؤلاء الكافرين أيأس الناس ، كما تجد اليائسين أكفر الناس ، فهناك ارتباط بين اليأس

(١٣) اليأس في اللغة يطلق ويراد به عدة معان منها : انقطاع الأمل من الشيء وانتفاء الطمع فيه ، ومنها الذل أو القهر والخضوع أو اللين والتصاغر ، تقول آس أيسا : ذل وخضع ، وأس فلان فلانا : قهره ، وتايس فلان لان وتصاغر ، وبين المعنيين رباط ، فانقطاع الأمل من الشيء، وانتفاء الطمع فيه يفضي إلى الذل والقهر ، أو اللين والتصاغر مع الخضوع . أنظر النهاية في غريب الحديث والأثر مادة أيس ويأس .

(١٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٨٨/٢ .

والكفر ، كلاهما سبب للآخر وثمرة له : اليأس يلد الكفر ، والكفر يلد اليأس:﴿ **إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .**﴾ يوسف ٨٧.(١٥)
فالكفر يغلق الباب أمام الأمل ، فيضل طريقه إليه أبدا ، قال ﷻ :
﴿ **والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك ينسوا من رحمتي وأ ولئك لهم عذاب أليم.**﴾ العنكبوت ٢٣ .
تبين الآية وتوضح أن اليأس مترتب على الكفر ، وثمرة من ثماره المرة " ذلك أنه لا ييأس من رحمة الله إلا حين يكفر قلبه ، وينقطع ما بينه وبين ربه ، وكذلك هو لا يكفر إلا وقد يئس من اتصال قلبه بالله ، وجفت نداوته ، ولم يعد له إلى رحمة الله سبيل . "(١٦)
فما ظننا بصاحب القلب ؟ إنه قلب مأسور في ظلمة اليأس ، فصاحبه في سجن لا يستطيع فكاكا منه ، وإن رأيناه في أجمل صورة وأحسن مظهر، وإن رأيناه يمتطي الصافنات الجياد ، ويطير فوق السحاب ، تحيط به الحفظة من كل جانب فهو ذليل لا يعز ، وحزين لا يفرح .
قال **الحسن البصري** : " إنهم وإن طقطقت بهم البغال ، وهملجت بهم البراذين ، إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه . "(١٧)

---

(١٥) الإيمان والحياة ــ د٠ القرضاوي ١٥٨ .
(١٦) في ظلال القرآن ، الأستاذ سيد قطب ٢٧٣١/٥ .
(١٧) انظر كتاب الداء والدواء لابن قيم الجوزية ص٨٢ ، وطقطقت : صوت أو سمع له صوت " طق "، وطق الشيء جعله يصوت وجعله يطقطق، وهو كناية عن قوة الدابة وسرعة جريانها ، وهملجت الدابة: سارت سيرا حسنا في سرعة ، والبرذون : يطلق على غير العربي من الخيل والبغال ، من الفصيلة الجبلية ،عظيم الخلق ، غليظ الأعضاء ، قوي الأرجل ، عظيم الحوافر . المعجم الوجيز ص٤٤.

لأن حجب المعصية حجبت عن مشاعرهم الفرح وانقطعت الصلة بينها وبين القلب صاحب المدد الذي يمدها بالبهجة والمتعة ، إنهم قد يئسوا من رحمة الله ﷻ ؛ لأنه قد قطعوا حدا خطيرا من المعاصي أعماهم وصم آذانهم كالركام سقط على المرء ، فلم يستطع التخلص منه ، فيئسوا من الخلاص منه ، فصاروا يعرفون بذنوبهم ، وتعرف الذنوب بهم ، قال ﷻ ﴿ والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة.﴾ البلد ١٩ .

" أي المشائيم على أنفسهم بالأعمال السيئة ، وأصحاب المشأمة أصحاب التأخر . " (١٨)

فهم الذين نسجوا حول أنفسهم شرانق حجبت عنهم أنوار السماء ففاتهم الأمل فلم يدركوه ، فوقعوا في هذا الشؤم وذلك اليأس رحمة الله .

يقول **الأستاذ سيد قطب** : " إنهم أصحاب الشمال ، أو هم أصحاب الشؤم والنحس ، وكلاهما قريب في المفهوم الإيماني ، وهؤلاء هم الذين بقوا وراء العقبة لم يقتحموها . " (١٩)

ظلوا وراءها فلم يبصروا رؤية الدار الآخرة ، فهم يعيشون في نطاق عمرهم المحدود ــ الذي لا يملكونه ــ وهذه الحياة الدانية محفوفة بالخوف عليها ؛ لأنها لو فقدت لفقد هو كل شيء .

حافلة بالخوف من المستقبل الذي لم يفكر فيه ، بل جاهد كل من أراد أن يذكره به ، حافلة بالقلق لأنه يرى الموت يحصد أقرانه وقرناءه ، فكلما أصاب سهم الموت واحدا منهم استشعر أنه هو ، لا من قبيل الاستعداد له، بل هو الخوف من شيء يجهله لم يستعد له .

---

(١٨) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ١٢٩/٩ .

(١٩) في ظلال القرآن ٣٩١٤/٦ .

أما المؤمن فإن إشراقة النور في قلبه تكشف عنه الحجب ، فإذا به يظل منطلقا مع سهم الأمل ، حتى النقطة التي يتوقف عندها الأمل حيث تتحقق كل الآمال في الجنة ، وتتوقف الآمال بتحقق اليأس لأهل النار ﴿ **اخسئوا فيها ولا تكلمون .**﴾ المؤمنون ١٠٨ . وحينئذ ينقطع الرجاء والدعاء ؛ لأنهم لا يتكلمون بعدها ، ويحزنون حزنا أشد من إيلام الجحيم لهم ، قال ابن المبارك فيما يرويه بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ : " إن أهل جهنم يدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاما ثم يرد عليهم ﴿ **إنكم ماكثون** ﴾ الزخرف ٧٧ . " (٢٠)

(٢٠) أنظر كتاب : التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للإمام القرطبي ص٤٩١ ط مكتبة دار التراث .

المبحث الثاني .

منهج القرآن الكريم في بث روح الأمل .

الذي يقرأ آيات القرآن الكريم يستطيع رؤية هذا الجانب بجلاء ، ونستطيع أن نحدد الملامح العامة لهذا المنهج القرآني من خلال النقاط التالية :-

أولاً : بيّن أن القلب وعاء الأمل .

قال ﷻ : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ . ﴾ الرعد ٢٨ .

فالقلب المطمئن : هو القلب الذي غمرته السكينة فأبصر الأشياء على حقيقتها ، عرف مقام الله ، وعرف مقام جميع المخلوقات وأنها ــ مع سعتها وعظمتها ــ لا تساوي شيئاً في جنب الله ، وأدرك حجم الدار الفانية في مقابل حجم الدار الباقية ، فهانت عليه الفانية بكل ما فيها إلا ما اتخذه زاداً للباقية ، وهكذا فهو على نور من ربه .

الذين آمنوا أصحاب القلوب المطمئنة " تطمئن بإحساسها بالصلة بالله ، والأنس بجواره ، والأمن في جانبه وفي حماه ، تطمئن من قلق الوحدة ، وحيرة الطريق ، بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير ، وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ، ومن كل ضر ومن كل شر الإيمان بما يشاء ، مع الرضى بالابتلاء والصبر على البلاء ، وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة . " (٢١)

فالقلب إذا امتلأ إيماناً ذابت فيه تلك المعاني وانصهرت في أنحائه فاستمدت النفس أنسها وفرحتها وسعادتها وهناءتها ، وانطلقت على حرد قادرة على تحقيق الأهداف العظام ، لم يعقها عائق من خوف أو من ضعف أو من قلة ... أو نحو ذلك .

---

(٢١) في ظلال القرآن ٢٠٦٠ .

ثانياً : بيان ما به تطمئن القلوب .

وهو الذكر ، ذكر الله ﷻ وهو ما دلت عليه الآية صراحة في قول الله ﷻ : ﴿ ... أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ . ﴾ الرعد ٢٨ .

فذكر الله هو السبيل لتسكين القلب وتطمينه ، قال الله ﷻ : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . ﴾ الزمر ٢٣ .

فهم في روضة من السكينة يُحبرون فيها لكثرة ذكرهم بالله ، ولتفاعل قلوبهم مع هذه العبادة النقية .

والذكر الذي به تستقر القلوب هو الذكر المُحلَّى " بالخشوع ، والتأدب واستحضار معاني العبادات ومحاولة التأثر بها ، وملاحظة مقاصدها وأغراضها مع خفض الصوت ما أمكن ذلك ، واليقظة التامة ، والهمة الكاملة " (٢٢)

وليس الذكر الذي لا يُغادر الشفاة ولا يصل إلى القلب ، هو الذي به تطمئن القلوب ، إنما هو الذكر الذي ينزل على القلب نزول الماء على الأرض الجزر فتحيا بإذن الله ، وإن من أعظم آثار الذكر على القلب إنما هو الاطمئنان ، " ذلك الاطمئنان بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ، فاتصلت بالله يعرفونها ، ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين الذين لم يعرفوها لأنها لا تنقل بالكلمات ، إنما تسري في القلب فيستروحها ،

(٢٢) زاد الخطيب ــ الأستاذ عبد الخالق الشامي ص٥٤٠ .

ويهش لها ويندى بها ويستريح إليها ، ويستشعر الطمأنينة والسلام ، ويحس أنه في هذا الوجود ليس مفرداً بل أنيس ، فكل ما حوله صديق ، إذ كل ما حوله من صنع الله الذي في حماه .

وليس أشقى على وجه هذه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس إلى الله ﷻ ، ليس أشقى ممن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون ، ليس أشقى ممن يعيش لا يدري لمَ جاء ؟ ولِمَ يذهب ؟ ولِمَ يُعاني ما يعاني في الحياة ؟

ليس أشقى ممن يسير في الأرض يوجس من كل شيء خيفة لأنه لا يستشعر الصلة الخفية بينه وبين كل شيء في هذا الوجود .

ليس أشقى في الحياة ممن يشق طريقه فريداً وحيداً شارداً في فلاة عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين .

وأن هناك للحظات في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكناً إلى الله مطمئناً إلى حماه مهما أوتي من القوة والثبات والصلابة والاعتداد .

ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله ، فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله : ﴿... أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ . ﴾ الرعد ٢٨ . "[٢٣]

هذه الخواطر القطبية[٢٤] حول هذا النور القرآني ،تركز على عدة نقاط :-

(١) أن القلب إذا اطمأن بذكر الله انفسح انفساحاً عجيباً لا يستوعب اللسان بياناً ، ذلك الانفساح العجيب ، يجعله يستوعب كل ضائقة ويحولها إلى فرج كمثل الذي يرى النور في أشد لحظات الليل سواداً .

---

(٢٣) في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ٤/٢٠٦٠ .

(٢٤) نسبة إلى قائلها ، والقطب من القوم سيدهم ــ المعجم الوجيز ص٥٠٧ .